مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ السَّجدَة

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة السجدة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة السجدة

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ
مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ
مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ
وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ
فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

ابتدأت سورة السجدة بِمِثْلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم، وسورة لقمان. قال تعالى ﴿الٓمٓ﴾ وهي ثلاثة أحرف من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١]

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، ليُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة السجدة ببعض الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ الٓمٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد هذا انتقل السياق الكريم من الله العزيز الحكيم إلى بيان وتأكيد مصدر كتابه العظيم بأنه من الله رب العالمين، والذي يفيد النفي التام والقاطع من أن يكون كتابه القرآن العظيم من عند غيره سبحانه وتعالى ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهذا بيان من ربكم عَزَّ وجل بأن مصدر القرآن الكريم ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من غير شك ولا مرية في ذلك.

وقد أشار تبارك وتعالى إلى القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي القرآن الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وجاء لفظ الكتاب مفرداً ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ليفيد جنس الكتاب. بحيث إذا أفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن الكريم.

ومن دقائق البيان الكريم أن جعل موقع نفي الشك والريبة بين خبر ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وبين الذي نَزَّل القرآن ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فقدم عَزَّ وجل نفي الشك والريبة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ على ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لإفادة العناية بالحصر، والاهتمام، وأنه ليس محلاً للطعن، وأنه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ

---

(١) المرجع السابق (١/١٠٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

ﵟٱلۡعَٰلَمِينَﵞ فإن هذا القرآن مُنَزَّلٌ من رب الخلق أجمعين، ومالك الأمر كله، أنزله على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم. فلا ريب ولا شك في أنه من عند الله عَزَّ وجل. فَنَفَى بهذا البيان عن القرآن جميع طُعُون من طعن فيه زوراً وبهتاناً، ممن كذَّب به، فرماه بما لا يليق به، فنفى عنه الشعر، والسحر، وأساطير الأولين، وسجع الكهانة. فكذب بذلك سبحانه وتعالى جميع المفتريات والطعون، وأثبت مصدره أنه من لدنه عَزَّ وجل.

وأفاد مدلول قوله تعالى ﵟلَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَﵞ أنه نفي تام من أن يكون القرآن العظيم غير ذلك الوصف، ومن غير ذلك المصدر له، الذي هو من رب العالمين. وبالتالي فليس شأن القرآن مجالاً لأن يُرتاب فيه أصلاً. فلا ريب ولا شك أنه من الله تعالى، رب العالمين، فَنَفَى بهذا الاستدلال جميع أنواع الشك، ليثبت أنه من لدن العزيز الحكيم.

ولما أنه مُنَزَّلٌ على الرسول صلى الله عليه وسلم فإن في ذلك تزكية للقرآن الكريم من الله العزيز الحكيم، وكذلك هي تزكية أيضاً لرسوله عليه الصلاة والسلام، وتمجيد وبيان لمنزلته وأمانته صلى الله عليه وسلم، الذي أُنْزِل عليه هذا الكتاب العظيم، الذي لا ريب ولا شك بأنه من رب العالمين. وفيه إثبات أن الله تعالى هو وحده ﵟرَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَﵞ بما يبطل به الشريك والشرك قطعاً. وفي هذا البيان من الله عَزَّ وجل لكتابه القرآن العظيم ما يدل دلالة مؤكدة بوضوح كتابه القرآن الكريم وضوحاً بيناً إلى درجة الإعجاز في فصاحته وبلاغته، ووضوح معانيه ودلالاته، وأن جميع هديه مستقيم لا ريب ولا شك فيه.

ثم ينتقل السياق إلى ما يتعلق بدعاوي المشركين الباطلة، من أنه مُفترى من الرسول صلى الله عليه وسلم، فيكذبهم عَزَّ وجل بأسلوب السؤال الاستنكاري، ثم يردفه بتكذيبهم، ثم التقرير بأنه حقيقة ثابتة بأنه من الله العزيز الحكيم ﵟأَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَﵞ فيقول عَزَّ وجل بأسلوب الاستفهام الاستنكاري ﵟأَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُﵞ أو أنهم عدلوا عن أقوالهم بأنه: من سحر والأساطير إلى القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد افتراه من عنده، ويَدَّعي أنه من عند الله تعالى؟ بعدما تبينت لهم دلائله وحججه وبراهينه أنه كتاب معجز في نظمه ودلائله وتشريعه وأحكامه، وبلاغته وعظمة بيانه، بما لا يدع مجالا للشك بأنه كلام الله تعالى، فإنه أمر عجيب منهم. فهو استنكار لمن هذه حالهم من الطعون الفاسدة التي لا يُقرها العقلاء، والشأن والأمر الذي لا مجال فيه للشك والريبة.

ثم يرد تبارك وتعالى على افترائهم بتكذيبهم، ورد افترائهم عليهم ﵟبَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَﵞ فتصدر حرف ﵟبَلۡﵞ الذي يفيد إثبات ما بعده ونفي ما سبق من قولهم ﵟأَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُﵞ فقولهم هذا

كذب محض، ثم أثبت عَزَّ وجل حقيقة القرآن الكريم ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فالأمر ليس كذلك كما قالوا: بأنه مفترى، بل هو الحق الصادر من ربك عليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين جَلَّ جلاله الغاية من إنزال القرآن العظيم فيما يخصهم ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فالهدف والغاية فيما يخصهم أيها النبي هو إنذارهم مما هم عليه من الكفر، والشرك، وما تسوء به العاقبة عليهم. فهو إنذار وتحذير وترهيب لهم من الشرك وغيره من المعاصي، لتقوم الحجة به عليهم، لأنه ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ فلم يُبعث فيهم رسول من قبل بعثتك لهم أيها الرسول، صلى الله عليه وسلم. فإنهم أمة أمية لم يأتهم من ينذرهم مما هم عليه من الشرك والباطل قبل مجيئك إليهم بالرسالة من عند ربك تبارك وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بالهدف والغاية التي يجب أن تتحقق فيهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ لعلهم بهذا القرآن العظيم تحصل الهداية لهم بطاعة ربهم سبحانه وتعالى إن التزموا به. فلعلهم بهذا الكتاب يهتدون إلى الحق، من خلال العمل به. فإيتاء الرسول صلى الله عليه وسلم الكتاب ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أي: لأجل أن يحصل لهم الاهتداء بالوصول إلى الحق وتطبيقه والتزامه. ودلالة ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ بمعنى لكي. فإن علة وسبب رسالتك إليهم بالقرآن العظيم لكي يحصل لهم الاهتداء بالوصول إلى الحق وتطبيقه والتزامه.

ومن الدقائق أن الآية الكريمة بينت وأوضحت أن إيتاء النبي عليه الصلاة والسلام الكتاب هو لغاية وهدف، وهو أن يحصل لهم به الاهتداء. فمراد الله تعالى أن ينصلح شأن العباد لآخرتهم ودنياهم. مما يدل على عظيم رحمته جَلَّ في علاه بالعباد، وأنه أراد لهم الخير في الدنيا والآخرة، ولكن بعض الناس يأبى إلا الكفر والشقاء.

ثم يذكر الله تعالى بشيء من التفصيل لدلائل وحدته وربوبيته وألوهيته بما خلق من المخلوقات العظيمة. فيقول عَزَّ وجل ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فبعد أن أثبت تبارك وتعالى أنه أنزل القرآن من لدنه لا ريب فيه، ونفى عنه افتراء المفترين من الكذب على كتابه المجيد، يخبر جَلَّ شأنه بأنه هو الذي خلق وأبدع وأوجد السماوات والأرض، وما بينهما من المخلوقات بعد العدم، كالسحاب والنجوم والكواكب، والشمس والقمر والرياح بأنواعها، ثم يذكر تبارك وتعالى مدة الخلق ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ذكر ابن جرير وغيره رحمهم الله تعالى: أن الأيام الست هي: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة [١] وفي يوم الجمعة خُلق آدم عليه السلام، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سُمي السبت، وهو القطع[٢] ولله تعالى الحكمة في تقدير ما يشاء من الأيام والأوقات، وهو قادر على خلق ما خلق في لحظة واحدة، ولكن ليظهر للخلق بهذا التدبير حكمته وحلمه سبحانه وتعالى، فله الملك، وله الحكمة في عدد تلك الأيام، وفي كل أمر وشأن.

وقد بدأت الآية الكريمة بلفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وجيء باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان بالاسم المختص به، قطعاً لدابر عقيدة الشرك في الإلهية[٣] ولإفادة الحصر لخلق السماوات والأرض وما بينهما له وحده لا شريك له.

وقد جمعت جملة ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ الإيجاد والخلق والتدبير، ومنها تدبير أمر السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما فوقها وما حملت وما حوت، وقد جمعت كلمة ﴿ السَّمَاوَاتِ ﴾ كل ما ارتفع مما يشاهده الإنسان وما لا يشاهده مما غاب عنه، فما يشاهده الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما يحسه الإنسان من الرياح والهواء، ومما لا يراه كالملائكة، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى من المغيبات، وهو ما غاب وخفي عن البشر، فَقَصُرت حواسهم عنه، وأما كلمة ﴿ وَالْأَرْضَ ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدب عليها وما يجري فيها، وما بداخلها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، والبحار والمحيطات، والمعادن وأنواعها، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان؛ ومما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى. وأُكدت دلالة ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كل ما هو بين السماء والأرض من مخلوقات، مما نراه، ومما لا نراه، وما نحسه ولا نراه كالهواء.

ثم يخبر الله تعالى عن عرشه العظيم الجليل، واستعلائه على جميع خلقه تبارك وتعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، فجميع المخلوقات هي دون العرش وأسفله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٥/١٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٩/٢)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨٦٠/٨)

﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ استواء يليق بجلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل، لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء. بما يفيد استعلاء ربنا تبارك وتعالى وهيمنته على جميع خلقه. قال السعدي رحمه الله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ العظيم، الذي يسع السماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه[١] والإنسان بطبعه يستوعب دلالة النص، ولكن لا يستطيع أن يدرك هيئة وصورة ما غَيَّبَهُ اللهُ تعالى عنه، وهنا تأتي حقيقة الإيمان بالغيب من غير تشبيه ولا تمثيل.

ثم يخبر جَلَّ في علاه عباده بأنه ليس لهم غير الله عَزَّ وجل يتولى شؤونهم ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فينفي تبارك وتعالى أن يكون لعباده غيره يتولى شؤونهم، أو شفيع يشفع لهم عند الله سبحانه وتعالى، لينجوا من عذابه وعقابه. بما يفيد: فإن تجاوزتم حدود الله تعالى بمعصيتكم له عَزَّ وجل، فمالكم من ناصر ينصركم من عقابه، بشفاعته لكم عند ربكم. بما يفيد الترهيب والتحذير لهم بعد أن بين لهم مظاهر قدرته، وعظيم سلطانه وقهره عَزَّ في علاه. وفي هذه الآية الكريمة التحضيض والدفع بعباده إلى التفكر والتأمل والاتعاظ. مما يدل على أن منهج الله تعالى في دعوته للعباد قائم على الحقائق والبراهين، وتفتيح الذهن والعقول على الحجج والأدلة والبراهين، وإقامة الحجة بالعلم والدلالات الظاهرة التي تُلزم العاقل بالانكسار والطواعية لها. وهذا من رحمته بالعباد، حتى لا يكون طريقهم منتهي بالعذاب. غير أن بعض النفوس البشرية امتلأت قلوبهم بالعناد والكبرياء. فنسأل الله تعالى العفو والعافية، في الدنيا والآخرة.

ثم يحث الله تعالى عباده على التفكر، بسؤال استنكار وعتاب لهم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتفكرون فتتعظون، فتعلمون أن الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، واستوى على العرش هو ربكم الذي انفرد بتدبير شؤون الكون، ومنها شؤونكم، فتوحدوه وحده لا شريك له في العبادة والألوهية والربوبية، فتخلصوا له العبادة له وحده لا شريك له. وفي توجيههم إلى التفكر ما يبين أن من تمعن في الكون وَحَّد الله جَلَّ في علاه، بمثل ما تفكر وتأمل إبراهيم عليه السلام، فَوَحَّد الله تعالى.

ثم يضيف اللهُ تبارك وتعالى إلى شأن الخلق، بيان قدرته في تدبير الكون ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فإن ربكم ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي: يُحْكِمُ الأمر والشأن لِمَا خلق، وذلك بإنزال القضاء فيه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: يتنزل أمره من

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١١٨/٢)

أعلى السماوات ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى أسفل مخلوقاته التي تتمثل في الأرض وما فيها وما عليها. بما يفيد أن تدبير شؤونكم كائن من عنده سبحانه وتعالى في السماوات، بما يقضيه في تخوم الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم تعود الأعمال إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة. وقال مجاهد وقتادة والضحاك: النزول من المَلَك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين[١] أي: هذا حسب ما تعدون من تقديركم ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ والذي هو كائن عند الله تعالى في طرفة عين. مما يدل على اختلاف المقاييس، فالذي يقيس قدرة الخالق على مقاييس المخلوق يكون قد جنح عن الحق والطريق المستقيم. فقد أظهر وبَيَّنَ سبحانه وتعالى بهذا البيان عظمته جَلَّ جلاله، وعظمة تدبيره، وسرعة قضائه، وسهولة تحقيق ما يشاء عَزَّ وجل. فسبحان الله العظيم في كل شأن، وفي كل وقت وحين، له كمال الملك والسلطان.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن صفاته العظيمة الجليلة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فذلك الذي خلق السماوات والأرض، ثم استوى على العرش، والذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون هو المتصف بأنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فبدأ الإخبار بعلمه للغيب ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: العالم بما غاب عن خلقه من مخلوقاته التي لا تُعد ولا تُحصى، وما غاب عن بعضهم البعض؛ مما تخفيه الضمائر والنفوس، وما تكنه الصدور.

ثم ذكر عَزَّ وجل: علمه بالظواهر، المتضمنة في دلالة الشهادة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مما يشاهده الخلق ويعاينونه بحواسهم المختلفة. ثم ذكر صفة القوة والسلطان والقهر: وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب القوي، الذي لا يُغلب، والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وكذلك مع عزته فإنه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المتصف بالرحمة، فهو الرحيم بعباده بما أنعم به عليهم من الإنعام، وإرسال الرسل حتى يؤمنوا ويعملوا الصالحات فيدخلوا الجنة، بترغيبهم في الخير، وتحذيرهم من الشر، ومن العواقب الموجبة لسخطه وعذابه عَزَّ وجل.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٦٦)

ومن دقائق البيان أن قدم علم الغيب على علم الشهادة، لإظهار القوة في العلم وعمقه فيما لا يعلمه المخلوق، ليتلوه ما هو أهون منه وهو الظاهر الذي يراه المخلوق، وليعطي قوة الهيبة والمبادرة في الترهيب والتخويف، بأنه مطلع على ما غاب عن عباده، وما يُغيبه بعضهم عن بعض، وما يتكتمون عليه من نوايا وخفايا، فإنها لا تخفى على الله تعالى، فإن ربكم يعلم الغيب كما يعلم الشهادة، فهما أمران مستويان عند الله عَزَّ وجل. كما قدم صفة العزيز على الرحمة، لتظهر المهابة والهيبة له تبارك وتعالى. ومع عظيم تلك الصفات من العزة فهو سبحانه وتعالى متصف بالرحمة، فلا تيأسوا من رحمة الله تعالى بالرغم من عظيم صفاته في العزة والقهر والإذلال لغيره. فَجَمَع البيان بين قوة الترهيب وقوة الرحمة، مما يغرس في عباده الخوف منه جَلَّ جلاله، وكذلك عدم اليأس من رحمته مهما بلغت الذنوب والمعاصي. مما يعلم الإنسان التوازن في نفسه وفي حاله، والتوازن مع الغير حتى في مجال القيادة، وإدارة الشؤون مع الناس، وفي التربية، فلا يجعل الأبواب مغلقة تجاه من أخطأ، فإذا كان الله تعالى على عزته وقوته يتعامل مع عباده بهذا الأسلوب، وهم عبيده، فما أحوج الإنسان لمثل ذلك مع غيره.

ثم يتسلسل البيان في تدرج عظيم إلى التأمل في إحسان الله تعالى لكل شيء خلقه، ومن ذلك خلق الإنسان ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ فيلفت سبحانه وتعالى انتباه عباده إلى التأمل في حُسن وجمال ما خلق من المخلوقات، وحُسن التدبير لها فقال عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ فكل شيء خلقه عَزَّ وجل كان على أحسن ما يكون: إتقاناً وإحكاماً وحُسناً وجمالاً، وسواء كان ذلك في ذات المخلوقات التي خلقها تبارك وتعالى أو في مقاصد خلقها وغاياتها التي خُلقت من أجله. فإن تأملت الشجر، وجدته في أجمل وأحسن خِلقة وهيئة، وإن رأيت الوديان، ومجاري السيول، والأنهار، رأيتها كذلك. وإن تأملت جمال الجبال في تنوعها وتنوع أحجامها وأشكالها وارتفاعها هالك وجذبك حُسن خلقها، وإن تأملت الطيور وهي ترفرف في السماء، وهيئتها، وطريقة تحليقها، وسرعتها، وطريقة هبوطها وإقلاعها، هالك حُسن وجمال خلقها، وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى. فكل ما خلق تجده في أحسن صورة وجمال وبهاء.

ثم تدرج البيان بعد ذلك إلى خلق الإنسان الذي خلقه تبارك وتعالى في أحسن تقويم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ فبدأ البيان الكريم إلى أصل الخلقة، بأنه خَلَق الإنسان من طين، وهو خلقه تعالى لآدم عليه السلام، أب البشرية جميعها، فأعاد الإنسان إلى التفكير والتأمل في أصل الخلقة، ثم التدرج به إلى التسلسل المتتابع، من التراب إلى مني الرجل وبويضة المرأة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ ثم جعل سبحانه وتعالى التناسل البشري ﴿ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ من نطفة رقيقة، وضعيفة

ليس لها قوة، حتى اتصفت بالمهين الضعيف الذي ليس له وزن عند الإنسان. فهي من نطفة الرجل وبويضة المرأة، لتتعاقب السلالة البشرية ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾

وتفيد دلالة كلمة ﴿ سُلَٰلَةٍ ﴾ على التعاقب المتصف بالتسلسل، فيترتب بعضه على بعض في مراحل خلقه وتكوينه. مما يثير الانتباه لجانب التنظيم، وجانب الحاجة بين الرجل والمرأة التي يتعاقب ويتتابع باجتماعهما النسل، والذي نظمه تبارك وتعالى بتشريع الزواج، مع تنظيم وتحديد العلاقة بين الزوجين، والمسؤوليات والواجبات، حتى تكون في انسجام بديع لمن أقام شريعة الله تعالى في تلك العلاقة. فإن جميع هذا يستثير الذهن نحو قدرة الله تعالى، وعظمته، وعظمة تدبيره، التي لا يمكن لأحد من الخلق أن يكون له ما هو لله تعالى من الربوبية والعبودية والألوهية. ومن دقائق البيان استخدام حرف ﴿ ثُمَّ ﴾ لإفادة الترتيب في التعاقب، بأن جعل خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من ماء مهين.

ثم يستكمل ربنا تبارك وتعالى بيان خلقه للإنسان في أحسن تقويم ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ثم أتم خلق الإنسان، على الهيئة التي هي في أحسن تقويم، فتناسبت أعضاؤه، وبنيته، وأصبح سوياً معتدلاً ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ وهي الروح اللطيفة التي لا يعلم ماهيتها إلا الله سبحانه وتعالى، فإذا نُفخت فيه الروح تحول مما كان عليه من انعدام الإحساس والحركة إلى جنين يتحرك في بطن أمه. وفي هذا تعليم وبيان للإنسان بحقيقته، وحقيقة خلقه ووجوده وحركته، والتي تدل على عظمة الخالق تبارك وتعالى، الذي له الفضل على عباده، بما يستوجب كمال الخضوع والطاعة منهم لربهم جَلَّ جلاله. ومن الفوائد البيانية أن حرف ﴿ ثُمَّ ﴾ أفاد الترتيب والتعاقب والتتالي.

ثم يُفَنِّد تبارك وتعالى بعض نعمه المتعلقة بتكوين الإنسان ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ فذكر سبحانه وتعالى ثلاثة من إنعامه على الإنسان من حيث الخلق والتكوين، وخص الثلاثة من بين بقية النعم لأنها أهم الحواس وأظهرها في الإنسان، والتي يتحقق بها الانتفاع في التعلم والتعليم والطاعة لله تعالى، فهي مصدر التلقي والفهم والحفظ، فأولها نعمة السمع ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾ وهي الحاسة التي يسمع بها الإنسان المسموعات، من الأصوات، والكلام، فهي أقوى مصدر التلقي للحقائق الصوتية، ليحصل بها التَّعَلُّم. ثم ذكر بعدها سبحانه وتعالى: البصر ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ وهي الحاسة المتعلقة برؤية المشاهد والحقائق،

ومظاهر الكون، فيرى بها الأحجام والألوان والأشكال. وهي الحاسة التي يرى بها الإنسان الذي أمامه، على تعدد وتنوع الْمُبْصَرَات التي ينظر إليها، فيجمعها البصر ويحتويها في شكلها التي هي عليه كما هي في الحقيقة. فإنها نعمة عظيمة جليلة.

ثم النعمة الثالثة وهي: ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ التي هي: القلوب، والتي هي محط التفكير والتحليل والاستنتاج. وهي مجمع العواطف من الحب والكره والبغض، والميل والانصراف، وفيها يقع الخوف والطمأنينة، والرغبة والرهبة. وهي التي يُفضي إليها السمع بما سمع، والبصر بما رأى، ليكون منها القرار. فهي محطة وميدان التفكير والتأمل. فهي نعمة عظيمة جليلة، وتنظيم بديع، يدل على عظمة الخالق وجلال تدبيره عَزَّ في علاه.

ومن جليل دقائق البيان أن أورد السمع مفرداً ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ بينما ورد البصر والفؤاد بصيغة الجمع ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى أنه قيل: الجمع باعتبار المتعلقات، فلما كان البصر يتعلق بأنواع كثيرة من الموجودات، وكانت العقول تدرك أجناساً وأنواعاً، جُمِعَا بهذا الاعتبار. وأُفرِد السمع لأنه لا يتعلق إلا بنوع واحد وهو الأصوات(١) ومما تم ذكره عن ذلك في سورة يونس: فإن المتأمل يجد عمق المعاني وعمق الدلالات التي يحملها هذا السياق، فمن حيث اللغة: أن السمع مصدر، والمصدر لا يُجمع، أما الأبصار فاسم، ليفيد التغاير بينهما في التحكم وفي الاستعمال، فالسمع حاسة لا يستطيع الإنسان أن يختار مسموعاً واحداً من بين كثرة الأصوات وتعددها إذا تعددت في وقت واحد، أو يمنع سمعه ما يسمع تلقائياً فيحجبه عن البعض دون البعض، أو يُفرد أحد الأصوات عن غيره بالسماع دون غيره. فكأنه آلة واحدة، فلا يسمع بها تفاصيل الأصوات إذا اختلطت على السامع، فإن تداخل الأصوات يمنع السامع من توجيه السمع لأحد هذه الأصوات دون غيرها من الأصوات، ليفرده بالاستماع، وبالتالي أصبح السمع كأنه آلة واحدة مفردة، لا يستطيع أن يسمع بها إلا متكلماً واحداً ليفهمه.

بينما البصر يستطيع الإنسان أن يحركه يُمْنَة ويُسْرَة، ويستطيع أن يفرد بعضها دون بعض، فيحدق به في شيء معين دون غيره، ويتنقل به بين المرئيات، فينظر به هنا وهناك. ويستطيع أن يرى بعينيه مجموعة من الأشياء أمامه. وكذلك الأفئدة، يستطيع أن ينشغل بأمر، وينتقل إلى أمر آخر، وثالث ورابع، ثم يعود للأول، أو الثالث، أو الثاني، وقد يربط بين بعضها البعض، وقد يُبعد ويُقصي منها ما يريد، فإنه لسعة مساحتها كانت في السياق على سبيل الجمع. وهذا من الإبداع والإعجاز في البيان، وفي علل المفارقات بين صياغة الألفاظ. فسبحان من أظهر الإعجاز حتى في بيانه العظيم. فكما أظهر إعجازه تبارك وتعالى في مخلوقاته وتدبيره أظهره في دقة سياقه وبلاغة بيانه.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٩/٨)

فأبانت الآية الكريمة عظمة الله عَزَّ وجل في إبداعه، وعظمته في خلقه، بما يدل ويبين ويُظهر انفراده سبحانه وتعالى بالإنشاء والتدبير الذي قد تعاظم وتعالت فيه دقائق خلقه سبحانه وتعالى، والتي أظهرها وأبانها عَزَّ وجل في الإنسان، من خلال ما خلق من السمع والبصر والأفئدة وغيرها من أجزاء مكونات جسم الإنسان، مما يتطلب وجوب إفراده عَزَّ وجل بما هو له دون غيره من الخلق، وذلك بالإخلاص له عَزَّ وجل، ونفي الشرك عنه جَلَّ جلاله.

وخص تبارك وتعالى هذه الحواس الثلاث من بين غيرها من أجزاء جسم الإنسان لما فيها من عظيم الدلالات، التي لو تأملها الإنسان في علاقة بعضها ببعض، أو تأملها منفردة، لاهتدى بها إلى الحق مباشرة، لِمَا لكل واحدة منها من الخصائص والفوائد والإنعام العظيم الذي يعجز عن إحصائها وحصرها الإنسان. ولو تأمل في العلاقة بينها وبين المحسوسات لأبهرته تلك العلاقة التي استوعبت كل حاسة فيها بما يناسبها من المحسوسات، ولو ربط العلاقة بين الحاسة ونوع المحسوس بها لوجد عظمة قيمة ذلك الترابط بما تحدثه له من جليل الإنعام. فموقع الفؤاد هو موقع المحلل والمستنتج لما يسمع ويرى الإنسان، ليقرر المناسب لما سمع أو رأى من المسموعات والأصوات. فالقلب هو محل التفاعل مع الأشياء بعد إدراكها بحاسة السمع وحاسة البصر، وبقية الحواس. لأن مركز العقل هو القلب، كما قال به جمع من العلماء، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والأفئدة هي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء، ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج، قليلاً قليلاً، كلما كبر زِيد في سمعه وبصره وعقله، حتى يبلغ أشده[١] فالعقل هو مركز تحليل ما يأتي عن الحواس، ليصدر التوجه من خلاله، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٢] والعلاقة بين الدماغ والقلب هي علاقة تواصل، فالدماغ مخزن للملكات، كملكة الحفظ والتذكر، وغيرها، والقلب هو الذي يعقل به الإنسان الأشياء، وهو محطة الارتكاز، وهو مجمع العواطف والقرارات.

ومع كثرة هذه النعم، وتعدد أوجه فوائدها فإن الإنسان يقابلها بالقليل من الشكر ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ما أقل شكركم لله تعالى على ما أنعم به عليكم[٣] فما تشكرون ربكم إلا شكراً قليلاً. وقيل: لا تشكرون البتة[٤] لا تشكرون ربكم إلا شكراً قليلاً لا يُذكر مقابل ما أنعم به عليكم، فاكتسب صفة: التحقير الذي لا قيمة له، مقابل هذا الإنعام العظيم الجليل، الذي لا يتناسب مع النعمة والتفضل من ربكم الذي أنتم فيه.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٠٠-٦٠١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١/٣٤) برقم (٥٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٦٢)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٩٦)

والشكر يشمل دلالة الحمد باللسان، والشكر بالعمل والطاعة لله تعالى، والشكر بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم بأن كل النعم هي من عطاء الله تعالى، فلا شريك له فيما أنعم.

وباعتبار مجمل سياق الآية فإن جملة ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ تأتي بدلالة أنكم لا تُقرُّون إلا بالقليل من آيات الله تعالى أيها المشركون، كالإيمان بخلق السماوات والأرض، وتجحدون الكثير من آيات الله تعالى التي منها السمع والأبصار والأفئدة التي يُوجب شكرها التصديق والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، والقرآن العظيم، والطاعة لله تعالى فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، بما بينه لكم من شرعه سبحانه وتعالى. فواجبكم أمام هذه الآيات والحجج من النعم الشكر بالطاعة، ونفي الشريك.

وتأتي بمعنى: ما تشكرون حتى الشكر القليل، حتى ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فإنه لا يكون منكم. وهي الدلالة الأظهر مع حالة المشركين، والكافرين عموماً كما ذكر القرطبي سابقاً: لا تشكرون البتة. فينفي عنهم الشكر أصلاً سبحانه وتعالى. وأما باعتبار جنس الإنسان، حيث منهم المؤمن ومنهم الكافر، فيكون ما أقل شكركم لله ربكم أيها الناس على ما أنعم به عليكم. على اعتبار أن الشاكرين هم المؤمنون فقط، وهم الأقل عدداً من الكافرين. والكافرون هم الأكثر، فَمَثَّلُوا عدم الشكر من بين جنس الإنسان، والمؤمنون يمثلون القليل الشاكر من عموم جنس الإنسان. وهذا من بديع أوجه البيان، وغزارة دلالاته التي تدل على إعجاز بيانه سبحانه وتعالى في كتابه العظيم. فاستوعب البيان جملة من الأوجه المتظافرة، بسياق واحد دون الحاجة إلى تكرار السياق بحسب تعدد الأوجه. وفي هذا حث وتحريض على الشكر، بالقول والامتثال بالعمل والطاعة له سبحانه وتعالى.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى دلائل قدرته، وعظيم تدبيره، بأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يخبر جَلَّ جلاله بعناد المشركين، وما كان منهم من السؤال بطريقة الاستغراب والاستبعاد للبعث بعد الموت، وكأن تلك الآيات لم تُتلى عليهم، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ

﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وقال المكذبون من أهل الشرك ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هل إذا غبنا في الأرض وبُلينا وتمزقنا وتفرقنا فيها، واختلطنا بها ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ أنبعث بعثاً جديداً، ونُخلق خلقاً مرة أخرى. فهو سؤال تعجب منهم، ونفي للبعث بحسب حسبانهم الباطل، وترويجاً ونشراً لكفرهم، بما يدل ويفيد استبعادهم للبعث، دون تأمل وإفادة منهم لما ساق عليهم من دلائل قدرته سبحانه وتعالى، وعظيم ما خلق من الخلق المبهر، فانحرافهم وعنادهم هو بسبب أنهم قَصَرُوا تفكيرهم على الاستحالة المبنية على القدرات البشرية، بينما لو أرعوا سمعهم لما جاءهم من الحق، وتأملوا لآمنوا بالغيب، وأيقنوا بالبعث. مما يفيد أن الإنسان إذا أشغَلَ عقله بالباطل عن الحق، فعزل عقله وفكره عن التأمل لِمَا يقال له، فإنه بالتالي لا يُمَكِّن نفسه من الاستفادة مما يشاهده من الحق، أو مما يُقال له، كمن يُحدثه المتحدث عن أمر وهو يفكر كيف يرد عليه، من غير استيعاب لمضمون حديثه، وما فيه من العلم والفوائد والحقائق. وهذا يعلم المرء خطر إشغال الذهن بالباطل إلى درجة حجبه عن سماع الحق، والتأمل والنظر فيه.

وأورد سبحانه وتعالى استنكارهم بسؤالين متعاقبين، للدلالة على إمعانهم في التكذيب، وبصيغة التعجب الذي يفيد استبعادهم للبعث بعد الموت، وذلك بحسب حسبانهم الباطل. فيرد الله تعالى عليهم ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فليس إنكارهم للبعث على أساس استحالة إعادة خلقهم فقط، بل الأمر أبعد من ذلك، فقد توغلوا في الكفر حتى بلغ الأمر فيهم أن الأصل عندهم هو استبعاد لقاء ربهم تبارك وتعالى، فإنهم ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فالأصل فيهم أنهم ينكرون لقاء الله تعالى، وبالتالي ينكرون أن يكون هناك حساب وجزاء، وبناء عليه أنكروا البعث. فيرون أن الحياة هي الحياة الدنيا فقط. مما يفيد أنهم بنوا نفيهم للبعث بناء على جهل مركب على نفيهم أصلا لقاء الله سبحانه وتعالى. مما يفيد أن الجهل يقود للمزيد من الجهل. ونسأل الله تعالى السلامة.

فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم بحقيقة الحياة، ثم الموت، ثم البعث، حيث لقاء الله تعالى بأعمالكم ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ قل لهم يا أيها النبي ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ فإن الذي يتوفاكم هو مَلَكُ الموت الذي أمره الله تعالى بقبض أرواحكم. فردهم الله تعالى إلى حقيقة الموت. فإن الذي خلقكم ثم يتوفاكم بإرسال مَلَك الموت الذي أوكله الله تعالى بمهمة قبض أرواحكم، فإنه الدليل على أن الحقيقة هي ما يخبركم به ربكم الذي خلقكم، ثم يميتكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ ثم تعودون بعد موتكم إلى ربكم، ليكون الحساب والجزاء. فهذه هي الحقيقة. فكيف تؤمنون

بالحياة، وتؤمنون بالموت، ولا تؤمنون بالعودة إلى ربكم؟ فقياسكم قياس فاسد. فدلائل العودة إلى الله تعالى ثابتة، فلا ينفيها عن قدرته عَزَّ وجل، وعن حقيقتها وعن إخباركم بها إي شيء. فالنفي لها مستبعد، وإثباتها متحقق. فإنكم لا تملكون لأنفسكم تأخير الموت عند قبض أرواحكم لحظة واحدة. مما يفيد ويدل على قوة قدرة الله تعالى، وضعفكم، وأن له عَزَّ وجل كمال الحكم كيف يشاء، وأن خلقكم وموتكم دليل على عظيم قدرة الله تعالى، والتي منها بعثكم ولقاء ربكم جَلَّ جلاله.

ثم ينقلهم سبحانه وتعالى إلى كشف حالهم كيف يكون يوم القيامة إن لم يؤمنوا ويطيعوا ربهم ورسوله صلى الله عليه وسلم. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ولو ترى يا أيها الرسول، والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة والسلام، حين يكون حال هؤلاء المجرمين عند ربهم يوم القيامة، وهم مطأطئون رؤوسهم إلى أسفل، انكساراً وحياء وخوفاً ووجلاً وخجلاً مما فَرَط منهم من الشرك والمعاصي وإنكارهم للبعث، وإلى لقاء ربهم عَزَّ وجل، فتوجه الخطاب لهم من خلال مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم تحقيراً وازدراء لهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والخطاب لا يمنع أن يكون لكل أحد، إذ من براعة سياقه أنه يستوفي أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكل أحد من الْمُخَاطَبين. ولو ترى يا أيها الإنسان حال المجرمين ناكسوا رؤوسهم عند لقاء ربهم يوم القيامة.

ومن جلال الاسلوب أن مطلع البيان كان بجملة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ لتفظيع وتهويل صورة وهيئة الموقف للذين سماهم الله تعالى ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: المذنبون الذين ارتكبوا الجرائم من الأقوال والأفعال من الذنوب والآثام العظيمة ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مطأطئوا رؤوسهم إلى أسفل، انكساراً وحياء وخوفاً ووجلاً وخجلاً مما فَرَطَ منهم من الشرك والمعاصي وإنكار البعث، ولقاء ربهم عَزَّ وجل، بما يعني ويفيد المهانة والذل والندم والخجل مما كان منهم. طالبين من ربهم سبحانه وتعالى العودة للدنيا من أجل الطاعة والامتثال ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ ربنا أبصرنا الآن ما وعدتنا به، وأبصرنا الحقيقة التي كنا نكذب بها ونجحدها، وسمعنا ما كنا نُنكره. ولكن إبصارهم وسمعهم ومسألتهم كان بعد فوات فائدته، فيقولون حينها ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فأعدنا إلى الدنيا حتى نعمل بما أمرتنا به، لأننا ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: مصدقون بما كان غيباً.

وأسموا ما أمرهم الله تعالى به ذلك الوقت بالصلاح ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ أي: ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع الرسل لأقوامهم. مؤكدين طلبهم بالإيمان الصادق ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إنا مصدقون بما جاء منك يا ربنا، وذلك تعليل لطلبهم الإعادة إلى الدنيا. ولكنه طلب في غير وقته. فلا عودة ولا قبول للإيقان بعد معاينة الغيب حقيقة يعيشونها. فهذه هي الحقيقة التي سيؤول إليها من كفر بالله تعالى، وأنكر شيئاً من أركان الإيمان، والعبادات. إذ أخبر بها عَزَّ وجل العباد رحمة بهم، لعلهم يؤمنون، ولتكون حجة كاملة واضحة أمامهم وعليهم. مما يستوجب إن يمعن الإنسان النظر والفكر، ويغتنم فرصة الحياة ليتجاوز بها بعد عون الله تعالى وفضله مصارع يوم القيامة. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من قَدِم على الله تعالى بالطاعة والامتثال.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال قدرته، بأن كفرهم ليس هو خارج عن مشيئته، بل لو شاء لألزم الناس جميعاً بالهُدى إلزاماً لا ينفكون عنه، ولكن اقتضت سنة الله تعالى وعدله أن يجعل لكل إنسان مشيئته التي لو شاء الله تعالى لألزمه بما يريد ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ ولو أردنا لمنحنا كل فرد من الناس رشده وتوفيقه للهدى الذي يتحقق به الإيمان وكمال الطاعة ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ ومما يفيد أن عدم إيمان من كفر ليس هو خارج عن مشيئتنا. ولكن اقتضت حكمتنا أن جعلنا للإنسان حرية وإرادة كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ حتى يُعاقَب ويُثاب كل إنسان بما كان منه عدلاً من الله تعالى. قال قتادة رحمه الله تعالى: لو شاء الله تعالى لهدى الناس جميعاً، لو شاء الله تعالى لأنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين، ولكن حق القول عليهم[1] حق القول عليهم بالعذاب لكفرهم. ثم بين عَزَّ وجل الحكمة من ترك الخيار للإنسان ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ ولكن بهذا القضاء يتحقق ما قضى به سبحانه وتعالى من أن يملأ جهنم من الجن ومن الناس أجمعين. فتكون هي دار القرار لمن كفر بربه سبحانه وتعالى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾: أي: نفذ قضائي وقدري، وسبقت كلمتي ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ هذا هو القول الذي وجب من الله تعالى وحق على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطي كل نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا، لأنه سبحانه وتعالى قد علم أنهم من أهل الشقاوة، وأنهم ممن يختار الضلالة على

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٠٦/١٨)

الهدى[١] فعلم الله تعالى في سابق علمه بأن هؤلاء الكفرة باقون على كفرهم حتى مماتهم، فأصبحوا من أهل الشقاء، ولكن لا يعني أنهم خارجون عن إرادته سبحانه وتعالى بكفرهم، فلو شاء لألزمهم الهدى. ولكن لكل امرئ بما كسب.

فهذا البيان من الله تعالى يفيد أنه عَزَّ وجل لا يريد المعصية من عباده، ويريد منهم الاستقامة، بإرساله الرسل، وإقامة الحجج، ولكن منهم المطيع، ومنهم الكافر، ولا يعني ذلك خروجهم عن مشيئته وسلطانه، فلو أراد سبحانه وتعالى أن يجعلهم مهتدين لجعلهم وألزمهم، ولكن جعل الله تعالى الكون كله يسير وفق سنن، ومن ذلك جعل للإنسان اختيار ما يشاء، لمن شاء أن يستقيم، وأنزل لهم الكتب، وأرسل الرسل، ورغبهم في الخير وطمعهم فيه، وحذرهم من الشر والمعاصي ورهبهم منه. فمن اختار الهدى هداه الله تعالى له ووفقه، ومن اختار الكفر فعليه كفره، وعاقبة كفره. وأن عِلْمُ الله تعالى سابق لكل أحد ولكل شيء، ولكل حد قبل أن يحدث. مما يبين عدل الله تعالى، وأن ما يحدث من العباد من الكفر والفجور والمعاصي ليس بخارج عن مشيئته سبحانه وتعالى.

فإن الإنسان هو المكلف، وهو القائد لنفسه، وهو المسؤول عن تصرفاته. وقد قال الله تعالى في سورة الإنسان ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ فعرفها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. فعلى الإنسان أن يتحمل مسؤولية اختياره. وقال تعالى في سورة الإنسان ﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فإنا قد أظهرنا له بالبيان الواضح طريق الهدى، بالأدلة الكونية التي تحيط به، وبالنعم التي ينعم بها ويتفيأ فيها، من السماء والأرض والجبال، والشمس والقمر، والليل والنهار، وغيرها مما يحسه ويراه ويسمعه، وبما جاء من الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب. وما فطره الله تعالى عليه، فعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره، كما قال تعالى في سورة الإنسان ﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فإما أن يكون من الشاكرين لربهم على هذا الإيجاد، وهذا الإنعام، فيطيع ويمتثل لله تعالى باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ منكراً لإنعام الله تعالى عليه، فيكفر بالرسل، والكتب، والآيات والحجج. وبالتالي فإن عليه أن يتحمل مسؤولية اختياره، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وكذلك قوله عَزَّ وجل فيفي سورة الإنسان ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٥٢/٤)

أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فقد جعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويُعَلِّمهم معرفة عظيم سلطانه، حتى يعلموا بما يكون منهم، وما يجب عليهم، وأن ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته جَلَّ جلاله. كما يصحح أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. كما ورد في سورة الروم ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وهو الإسلام. فمعنى ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي: الإسلام. قال مجاهد رحمه الله تعالى: الإسلام[١] والتي يبينها قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يُولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه)[٢] أي: يولد على الإسلام. بما يفيد ويبين أن الإنسان قد وُلِد وهو مفطور على الإسلام، دون تفاصيله، فإن قلبه وميوله لمنهج هذا الدين، فيجد في أوامره ونواهيه وتشريعه ما يطمئن إليه قلبه. ولذلك ورد في تكملة الحديث تأثير غيره عليه (فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه) بما يبين أن تأثير غيره عليه هو أمر حادث طارئ مخالف لِمَا فُطر عليه المولود، من تأثير الوالدين، وممن يُحيطون به، ويتعايش معهم. فإذا عُرِّف وعَرَفَ الإسلام أقبل عليه ما لم يكن هواه وشهواته قد سيطرت عليه، فآثرها على غيرها من الحق، ولم يُرد مفارقتها إلى ما أدرك في قرارة نفسه أنه الحق.

ثم يخبر الله تعالى بما يُقال لهؤلاء لمشركين، ولكل من كفر عند دخولهم النار ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فذوقوا العذاب، بسبب غفلتكم عن الآخرة، وذوقوا العذاب الخالد الذي لا تنفكون منه أبداً، جزاء بما كان منكم من الكفر والعناد. وفي هذا تنبيه لهم بما سيكون من حالهم قبل وقوعهم فيه، إن كانوا يريدون الهدى، بعد أن قامت عليهم الحجة، حتى يكون جزاؤهم وفق أعمالهم، عدلاً في القضاء من رب العباد.

ومعاملة الله تعالى لهم جزاء وفاقاً، فكما نسيتم لقاء ربكم، فكذلك يتم نسيانكم وتجاهلكم يوم القيامة ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ أي: نتركهم في النار، كما تركو العمل لهذا اليوم، فيعاملهم الله تعالى معاملة من نسيهم، لأنه سبحانه وتعالى لا يغيب ولا يمتنع عن علمه شيء، ولا ينسى ولا يسهى تبارك وتعالى، ولكنه بمعنى التّرك، فيكون حالهم هو حال المنسيين المتروكين. وعن ابن عباس

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٣/١٨)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٤/١) برقم (١٣٨٥)

رضي الله عنهما قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر، وقال أيضاً: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا[1] فيكون جزاؤهم اليوم هو من جنس ما كانوا فيه في الدنيا، بأن ننساهم بمثل ما نسوا يومهم هذا، فنتركهم كما تركوا الاستعداد ليومهم هذا، فحالهم هو حال المنسيين في العذاب، المتروكين المهملين فيها، فلا يُكْتَرَثُ لحالهم، وفي هذا توبيخ وتحذير لهم، وموعظة وتحذير من ذلك، فإن هذا هو حالهم في النار، جزاء لِمَا كان منهم من جحود آيات الله تعالى ونكرانهم لها. فقد كان حالهم مع طاعة الله تعالى كحال الناسي، الذي لا يتذكر ما نسيه، إلى درجة أنه يعمل بخلافه تماماً، وكأنه لا يعرف عنه شيئاً البتة، مما يفيد أن حال النسيان في السياق هو لبيان عمق درجة الترك والهجر؛ والبعد الذي لا يماثله إلا عمل الناسي، وهم في غير نسيان من أمرهم.

فهي صورة دقيقة لحالهم السيء. ومقابل هذا النهج منهم عاقبهم الله تعالى بما يناسب نهجهم، ومن جنس فعلهم ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم، حيث تركوا أمره عَزَّ وجل فتركهم من رحمته وفضله وتوفيقه.

ومن بديع البيان أن وصف الله عَزَّ وجل تَرْكَهُم لِدِينِه بالنسيان، الذي لم يحصل منهم حقيقة، لأن النسيان هو عدم التذكر، ولكن وصفهم بهذا الوصف حتى يؤدي معنى حالهم في دين الله تعالى؛ بأنه كحال الناسي، فشدة تركهم له كأنهم لم يأبهوا به، مع أهميته، فكان تركهم كترك الناسي لأمر غاية في الأهمية. وهذا غاية الوصف وبلاغة التوصيف. وكذلك فإن نسيان الله تعالى لهم هو من باب المشاكلة، والمماثلة في الجزاء، بحيث يكون من جنس العمل، مما يفيد أن من ذكر الله تعالى ذكره، ومن أقترب إلى الله تعالى بالنوافل قرّبه الله تعالى منه، ومن هجر طاعة الله تعالى هجره من توفيقه، كما جاء في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[2]

وورد التحذير ببيان العذاب أنه بأقصى ما يكون، فجاء بيانه بدلالة الذوق ﴿فَذُوقُواْ ﴾ ليفيد بيان شدته التي تصل إلى أعلى درجات الإحساس، وهي الذوق. ثم ذكر سبحانه وتعالى لهم علة الذوق وسببه قبل بيان ما سيذوقون، مبالغة في التهديد، وشداً للذهن نحو المتابعة لمعرفته، فقال تعالى ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ أن الذي تذوقونه اليوم هو بسبب تغافلكم عنه، وترككم وإهمالكم له في الدنيا. وذكر كفرهم بالنسيان، لإفادة معرفتهم به حقيقة في دنياهم ولكن كان عدم إيمانهم والعمل له عناداً وتطاولاً على الحق،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢٨)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤/٣٨٤) برقم (٧٤٠٥)

فشأنهم هو شأن من انشغل بغيره فأهمله، فنسيه. وتُرد المعاملة من الله تعالى بمثل ذلك، جزاء وفاقا ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ ﴾ فإن الله تعالى لا ينسى، ولا يغيب عنه شيء، ولا يمتنع عن علمه أمر، ولا ينساه تبارك وتعالى، ولكنه بمعنى التّرك، فيكون حالهم هو حال المنسيين المتروكين الْمُهْمَلِين في العذاب، فلا يُكْتَرَثُ لحالهم، وفي هذا توبيخ لهم في الآخرة، وتحذير لهم، وموعظة في الدنيا.

ثم كرر سبحانه وتعالى الذوق مرة أخرى مرتبط بالعذاب ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ تذوقوا العذاب الملازم لكم، في خلود لا ينقطع ولا ينتهي. والسبب ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فالسبب بما كان من كفركم، وليس ظلماً لكم، بل أنتم ظلمتم أنفسكم باختياركم الكفر، بالرغم مما جاءكم من الحق والدلائل والحجج والبراهين، كما قال الله تعالى في سورة فصلت ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ﴾ فسبحان من عدل في حكمه وأبدع في بيانه، وأقام الحجة على عباده. اللهم نسألك حُسن الخاتمة.

﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١ ﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى ما يتعلق بالكافرين، ينتقل البيان إلى حال المؤمنين، فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ إنما يُصَدِّقُ بحججنا وبآيات القرآن العظيم الذين إذا تم تذكيرهم بتلاوة آيات القرآن الكريم سقطوا سجوداً من قوة ما خالج قلوبهم من الخشوع، وسبحوا الله تعالى في سجودهم، منزهين ربهم عما لا يليق به تبارك وتعالى، حامدين

له على ما أنعم عليهم به من الهداية وعموم الإنعام من غير تكبر في نفوسهم التي زكت بإيمانهم وخشوعهم وتذللهم لله تعالى. وفي هذا وصف دقيق لحال المؤمنين المصدقين بآيات الله تعالى، الذين خشعت جوارحهم وقلوبهم لله تعالى، ولآياته.

وقد بدأت الآية الكريمة بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ لتحصر وتقصر ما بعدها من التصديق الذي تحقق به الإيمان في أولئك الذين إذا وُعِظوا بآيات القرآن ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا ﴾ فكانت هيئة فعلهم للسجود هو الانكباب على الأرض بسرعة ﴿ خَرُّواْ ﴾ التي تعني السقوط المشتمل على السرعة، بملامستهم الأرض. وذلك تقديساً وتعظيماً لله تعالى بالسجود ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا ﴾ الذي يمثل هيئته وضع الوجه على الأرض، كهيئة السجود في الصلاة. ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ تسبيحاً مقترناً بالحمد والشكر، وهو قول: سبحان الله وبحمده. الذي يعني تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به عَزَّ في علاه، مع حمده سبحانه وتعالى. وذلك خشوعاً وتذللاً، وخضوعاً واستكانة لعظمة الله تعالى، وعظمة آياته. فإن خشوعهم قد حصل لما سمعوا آيات الله تعالى العظيمة الجليلة تُتلى عليهم ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فيخرون سجداً وهم لا يجدون في أنفسهم موانع الكبر، فيمنعهم من السجود لله تعالى، مما يبين أن الممتنعون عن الطاعة هم بسبب الكبر. لأن دلائل آيات الله تعالى واضحة، لا يمتنع عنها إلا المستكبر، وأما هؤلاء فليس في قلوبهم كبر، فيخرون لله تعالى سجداً امتثالاً وخشوعاً. مما يفيد ويبين مخاطر الكبر على أفضل وأجل الأعمال المنجية من العذاب.

ثم يبين الله تعالى المزيد من حال هؤلاء المؤمنين، وأثر إيمانهم عليهم في الطاعة والعبادة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فجنوبهم تتباعد وترتفع عن فرشهم التي ينامون عليها، وعن أماكن راحتهم من أجل أن يتهجدوا لربهم بصلاة الليل، فيدعونه خوفاً من عذابه سبحانه وتعالى، وطمعاً في رحمته، بطلبهم الجنة والخير وأن يرضا عنهم ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وأنهم مما رزقهم الله تعالى من الخير ينفقون منه في أوجه الخير المتنوعة.

فشملت الآية الكريمة وصفاً دقيقاً لهيئتهم عند راحتهم ونومهم، فإنهم يقطعونها من أجل عبادة ربهم عَزَّ وجل ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾ والتجافي يفيد التباعد والقيام والنهوض، والمتاركة، ومفارقة الشيء، وهي فرشهم التي ينامون عليها، بل ويتكلفون ذلك التجافي، فليس هو من وجود الفراغ، وليس من كمال الراحة، والاكتفاء من النوم، بل إن الحاجة موجودة للراحة، وللمزيد من النوم، ولكن حبهم لطاعة الله عَزَّ وجل، ورجاء ما عند الله تعالى تجافت جنوبهم عن المضاجع، ولذلك ورد البيان بالتجافي الذي يفيد المفاعلة بالتكلف

الذي يتطلب المجاهدة للنفس على القيام والنهوض من المضاجع. بل وورد التجافي بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ لإفادة المداومة المستمرة على ذلك.

ولم يقل تبارك وتعالى يتجافون عن مضاجعهم، بل جعل التجافي حاصل من جنوبهم التي هي طرف الإنسان الأيمن وطرفه الأيسر الذي يتقلب عليها النائم، وكأنها هي الفاعل للتجافي، وذلك كناية عن قوة تفاعل أجسادهم معهم، فحتى أجسادهم تتباعد مع طلبات نفسوهم لقيام الليل ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ والمضاجع هي الفرش التي يضطجع عليها الإنسان، طلباً للراحة والنوم، مما يفيد إظهار حاجتهم للراحة، فقيامهم وتجافيهم عن مطارح النوم والراحة هو من أجل عبادة ربهم سبحانه وتعالى. مما يُعلِّم المسلم الاقتداء بهم، فيتعلم منهم كيف يكون حاله مع ربه تبارك وتعالى.

ثم يبين جَلَّ جلاله سبب وعلة تجافيهم عن مضاجعهم، لأن التجافي عن المضاجع لا يكون إلا لأمر مهم جداً، فيقول عَزَّ وجل ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ فإن قيامهم عن مضاجعهم هو من أجل دعاء ربهم، وجمعوا في دعائهم بين الرهبة والرغبة. يدعون سائلين ربهم أن يجيرهم مما يخافون منه ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا ﴾ وهو أن يحصل منهم ما يستوجب عذابهم، فإن من خوفهم يسألون ربهم عَزَّ وجل المغفرة، والسداد والتوفيق وحُسن الخاتمة. وكذلك يدعون ربهم طمعاً ﴿وَطَمَعًا ﴾ في رحمته، وكريم ثوابه، بأن ينجيهم من النار، ويدخلهم الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب. مما يفيد أن من أهم مرتكزات التوازن في الحياة الدنيا هو الخوف والرجاء. فالخوف يجعل الخائف من الله تعالى يتوقى كل ما يُوصله إلى عذابه سبحانه وتعالى، والرجاء والرغبة والطمع في رحمة الله تعالى يمنع اليأس من رحمة الله تعالى، ومغفرة الذنوب، ودخول الجنة. فهما مرتكزان للسعادة النفسية، وضابطان لتصرفات الإنسان، بما يحقق الفلاح والنجاح في الدارين.

وبعد أن ذكر عَزَّ وجل علاقتهم به، وطاعتهم له جَلَّ جلاله، يبين علاقتهم بربهم فيما يخص عِبَادَه من الناس، فقال تبارك وتعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فمن أنواع ما رزقهم الله تبارك وتعالى من أنواع الخير ينفقون في سبيله عَزَّ وجل، فيعطون المسكين والفقير وابن السبيل، والسائلين وغيرهم من ذوي الحاجات.

ومن دقائق البيان الكريم أنه لم يحدد نوع ما ينفقون، فدلالة قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أنه عام، من أي شيء رزقهم الله تعالى ينفقون، ليستوفي الإنفاق جميع أنوع مفردات الرزق. كما أورد الله تعالى ما عندهم من الرزق بأنه له عَزَّ وجل ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ فهو المعطي وهو الرزاق تبارك وتعالى، فما تنفق منه هو عطاء من ربك لك، وهو الذي يُخلفه لك بخير وأحسن منه. كما أن في نسبته إلى الله تعالى اطماع للبر

في النفقة، لأنه هو المعطي، وهو الذي يُخلف للمعطي بما أعطى. وأيضاً أفادت ﴿ وَمِمَّا ﴾ التبعيض، أي: ليس جميع ما رزقهم الله تعالى ينفقونه، بل شيئاً وبعضاً مما رزقهم الله تعالى، وليس كله وجميعه، بل لم يحدد قدره، لتستوعب تنوع إمكانات وحاجات كل مؤمن، فكل إنسان هو أعلم وأدرى بكمية ما ينفق مما يملك، وحاجة المحتاجين وما يكفيهم. فكل منفق يدير تدبير إنفاقه بما يراه. وهذا غاية في البيان والوصف، كما يفيد هذا البيان اختلاف الناس في الرزق، وتباينهم في العطاء، وأنه ليس شرطاً أن يتساوى الناس في قدر ما ينفقون في سبيل الله تعالى، بل كل ينفق من سعته.

ثم يخبر الله تعالى عن عدم علم هؤلاء المؤمنين بما ادخر الله تعالى لهم مما تقر به أعينهم وقلوبهم يوم القيامة ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة عظيم عطائه، وعظيم الثواب الجزيل الذي لا تعلم عنه النفوس المؤمنة. فلا تعلم الأنفس البشرية المؤمنة عظيم ما ادخر الله تعالى لهم من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية التي لم تخطر على بال أحدهم، مما تُقر به أعينهم، ثواباً ومكافأة لهم على ما كان منهم من الإعمال الصالحة. مما يفيد ويبين أن الله تعالى لا يضيع أجر مَن أحسن في طاعته تبارك وتعالى، وأنه يجزل لهم العطاء بما لا يخطر ببال أحدهم، كرماً وفضلاً من الله عَزَّ وجل. مما يبين كرم الله سبحانه وتعالى، ومحبته لمن أطاعه، وامتثل لشرعه الحنيف.

ومن عظيم السياق الكريم إظهار دلالة ما أخفاه الله تعالى بدلالة إبهاج النفوس المؤمنة من خلال المفاجأة العظيمة ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ لا تدري النفوس المؤمنة بمضمون المفاجأة، لأن المفاجأة بالخير تدل على عظمته، وإذا كانت من الله تعالى كانت أكثر عظمة وجزالة ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم ﴾ لا تعلم ما تم إخفاؤه مما لا يمكن أن تدركه العقول من عظيم ما أخفاه الله تعالى عنهم. وفي هذا تشويق من الله تعالى للنفوس المؤمنة بما أعده ربهم لهم من الخير والثواب الذي لا تتخيله العقول. وفيه بشارة للمؤمنين، وترغيب لغيرهم في تحقيق الطاعة لله تعالى. وعندما أخفى الله تعالى ما أعده لهم، وصفه سبحانه وتعالى بأنه مما تقر به الأعين ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الذي يدل على السرور الذي تبتهج به العين من جمال رؤيتها له، فالعين أقوى الحواس من حيث المشاهدة والمعاينة التي تُدخل السرور بما سترى مما أخفاه الله تعالى عنهم.

وهذا الجزاء هو لقاء طاعتهم لربهم ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ثواباً ومكافأة لهم على ما كان منهم من الطاعة والامتثال بالإعمال الصالحة. ثم يؤكد سبحانه وتعالى كمال عدله بسؤال استفهام تقريري وإنكاري في نفس الوقت ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ أيكون حال من أطاعني كحال من

عصاني، فكان فاسقاً، خارجاً عن الإيمان، فإنهما لا يستويان في الجزاء كما لم يستويان في الطاعة. وقد ورد بيان عدل الله تعالى بسؤال تقريري، يقرر فيه التفاوت، وعدم التساوي. وفي نفس الوقت هو سؤال استنكار من أن يكون حالهما في الجزاء واحد. وفي الجمع بين الأسلوب التقريري وأسلوب الاستنكار ما يبين عظيم الفرق بين المتضادين، والذي يناسب كل فريق بما يستحقه، ففريق أهل الإيمان في الجنة، وفريق أهل الكفر في النار. كما بينته الآية التالية.

وسَمَّى الله تعالى المطيع بالمؤمن ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾ بينما سمى الكافر بالفسوق ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ لأن الفسوق خروج عن الشيء، بما يفيد أنه عرف الحق، فكابر عنه، فأصبح كفره فسوق، خرج به عن الحق الذي عرفه، وعن الفطرة التي فُطر عليها كل مولود. فقال تعالى ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ بصيغة الجمع بالرغم من أن حالهم هو حال فريقين، لإظهار حالة جميع أعداد الصنفين، أهل الإيمان وأهل الكفر. وهذا من دقائق البيان ودلالاته العظيمة في كتاب ربنا تبارك وتعالى

ثم يقرر سبحانه وتعالى للمخَاطَبين الفرق بين الفريقين، من خلال تقرير فرق الجزاء بينهما، فقال تعالى ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسله، وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله تعالى به من الفرائض وغيرها، وتركوا المعاصي. فإن لهم جنات المأوى. وسمى الله سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، كما أفاد البيان الكريم قوة التلازم والتعاضد بين الإيمان وبين العمل بالصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بهما. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله

ثم يخبر تبارك وتعالى بمصير هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإن المأوى والمنتهى الذي يسيرون إليه هو ﴿فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أي: يأوون إليها، ويرجعون إليها بعد الحياة الدنيا. وسماها الحق تبارك وتعالى بالمأوى، لأنها المنتهى الحقيقي الذي يعودون ويأوون إليه، فلا يخرجون منها، وكذلك وصفها بأنها منازل ﴿نُزُلًۢا ﴾ أي: أن الجنة منزلاً ينزلون فيها، وأنها قد أُعدت لهم نزلاً، ليجدوا فيها كل ما يحتاجون من غير عناء. ثم يذكر تبارك وتعالى علة وسبب هذا الجزاء العظيم ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أنزلهم الجنة، وجعلها

مسكناً لهم بسبب ما كانوا يعملون من الطاعة التي أمرهم الله تعالى بها. بما يعزز ويشجع عباده على الطاعة والامتثال للحصول على هذا الإكرام العظيم

وأما الفريق الثاني: وهم الذين فسقوا، فيقول الله تعالى عن جزائهم ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ وأما الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى بفسقهم عن الحق، ومعاداتهم للرسل ﴿ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فإن منازلهم التي يصيرون إليها، ويستقرون فيها هي النار ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ كلما أراد هؤلاء الكفرة الخروج من النار نتيجة شدة كربهم وغمهم من شدة سعيرها؛ وقوة عذابها، أعيدوا فيه مرة أخرى. وقالت لهم خزنة جهنم ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ فذوقوا النار التي كنتم تكذبون بها، وتدعون نفيها وبطلانها، وتكذبون بحقيقتها، فها أنتم تعيشونها اليوم. فَيُهانُون بالعذاب قولاً وفعلاً. فيكون هذا هو حال الكافر. وقد وبخهم الله تعالى بكلمة ﴿ ذُوقُواْ ﴾ التي تفيد مباشرة العذاب وشدته إلى درجة مماسته لحواسهم؛ كما يتذوق اللسان الطعام ونوعه. فالتذوق باللسان هو أشد وأدق حالات التذوق والاستشعار لدقائق المطعوم. فيكون قد بلغ بهم شدة الإحساس بالعذاب ما تبلغه حاسة اللسان من الطعام.

ومن دقائق البيان أن دلالة ﴿ كُلَّمَآ ﴾ تفيد تكرار إرادة الخروج منها مرة بعد مرة، وكذلك تكرار إعادتهم بمنعهم من الخروج منها كلما حاولوا ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ فكلما حاولوا وطمعوا في الخروج من النار مُنعوا. ومن مزيد التوبيخ لهم تكرار قول الملائكة لهم ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ فيتكرر العذاب وتتكرر الإهانة لهم. ومن أنواع العذاب الذي يذوقه الكفار هو العذاب النفسي، فعندما تنبعث في نفوسهم أمل الانفكاك من النار يُعَادُون إليها مرة بعد مرة ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ فإنه بمجرد المحاولة يُعادون فيها ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ فيجدون من يصدهم من خزنة النار عن مرادهم، قائلين لهم ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ لأن الإرادة في قوله تعالى ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ ﴾ تعني الرغبة والابتغاء، ومحاولة الخروج ومباشرته، وتَظهر الإرادة عند توقع حصول المأمول والمطلوب، وهي تشير إلى الإحساس بالقدرة والأمل، فَيُقطع أملهم عند ارتفاع توقعهم، وذلك بإعادتهم فيها ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ بل ويتكرر

مع كل إعادة لهم قول الملائكة لهم ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ فتزداد الحسرة، ويزداد العذاب النفسي. بما يفيد التحذير والحذر من هذا المصير. فإن في الإسلام النجاة والسلامة والسعادة. فاللهم ثبتنا على الإسلام. وتوفنا مسلمين. وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة بمنك وفضلك يا رب العالمين.

ثم يزداد بيان الله تعالى في إيضاح شدة عقابهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ هذا بيان بتزايد العذاب ومضاعفته ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ فيخبر الله تعالى بتزايد العقاب. وهو ما يكون من مصائب الدنيا التي تحل بهم، وما يكون عذاب القبر. وقيل غير ذلك، فقد ذكر ابن جرير، وابن كثير، والقرطبي، وابن الجوزي وغيرهم رحمهم الله تعالى: أنها مصائب الدنيا التي حصلت لهم بحسب نوع ما حصل، كالقتل يوم بدر، وإقامة الحدود عليهم، وعذاب القبر، والقتل والجوع[1] فهي تجمع جميع ما يكون لهم في الدنيا وما يكون في القبر، فاستوفت جميع ذلك، لأن الله تعالى أوردها عامة، ولم يخصصها بنوع محدد، ولم يخصصها بنوع من الكفرة، بل تعم جميع الفاسقين بالكفر. ونسأل الله تعالى السلامة. وفي هذا بيان بأن أهل الكفر يعانون من الشدائد في الحياة الدنيا في المال وفي النفس، ومن الأسقام والمصائب، حتى ومن كان مظهره الخارجي في نعيم، فإن هناك العذاب النفسي، من القلق والاضطراب، والمكدرات الخفية، والأسقام، والمصائب الظاهرة والباطنة.

وقد ذكر تبارك وتعالى تحصيلهم للعذاب الأكبر الذي هو في الآخرة ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ والعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة، المتصف بعظمته، حيث سماه سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ لقوته وشدته التي لا تشابه ولا توازي عذاب الدنيا وعذاب القبر. ثم يخبر ويبين سبحانه وتعالى سبب هذا البيان عنهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يرجعون عن كفرهم فَيُسْلِمُوا لربهم، وما جاءهم من الحق الذي بينه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. مما يفيد ويبين رحمة الله تعالى بالناس، إذ يحذرهم من العواقب، ويرغبهم في الخير، بما بينه لهم، وبكشفه عن قوة العواقب لمن أبى الحق فكفر. بل ويعاقب ويكرر عليهم المصائب في الدنيا، من أجل أن يعودوا لرشدهم فيدخلوا في دين الله عَزَّ وجل.

ومن مزيد فوائد البيان الكريم: أن قوله تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ هو قصر على العذاب الأدنى المتعلق بالدنيا، الذي يمكنهم به الرجوع إلى الحق، فيدخلوا في دين الله تعالى. لأنه هو الوقت الذي يمكنهم فيه

---

(١)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٦/١٨-٦٣٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٦/٦)

الرجوع عن الباطل إلى الحق، وأما عذاب القبر فلا يمكنهم به الرجوع إلى الحق، لأنه خروج عن الدنيا، وإن كان هو أيضاً من العذاب الأدنى. وبالتالي فإن العذاب الأدنى يشمل عذاب القبر من وجه أنه من العذاب الأدنى الأخف من عذاب الآخرة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يخبر الله تعالى بهول وفظاعة من أعرض عن آياته بعد أن أخبرهم بها، وقد ورد البيان بأسلوب التهويل والاستنكار والتعجب لشأن من يكذب بها، فيقول سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فهل هناك أكبر ظلماً ممن تم تذكيره بالحجج والبراهين من الله تعالى، ثم يُعرض عنها، بالانصراف والرفض والتولي عن الحق ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ سؤال يستدعي محاكمة النفس، ومحاكمة العقل، ومحاكمة هذا النوع من الناس الذين يرفضون الحجج والبراهين العظيمة التي يُذَكّرهم بها المرسلون، والتي لا مجال للشك فيها، لأنها آيات ربهم سبحانه وتعالى، وأن مصدرها من الله تعالى، بما يدل على قوتها، وقوة حجيتها. فهو استنكار لمن يكفر وينكر الآيات.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى عن دلالة آيات الله تعالى: لا أحد أظلم لنفسه ممن وُعِظَ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية، أو مجموعها، فتهاون بها، وأعرض عن قبولها، ولم يتدبرها حق التدبر، ولم يتفكر فيها حق التفكر[1] فدلالة الآية الكريمة شاملة لآيات الله تعالى في الأنفس وفي الكون، وفي القرآن الكريم الذي هو آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة، فهو آية في جلال وعظمة أحكامه، وتشريعه، مع قوة تعاضد وتناسق ما فيه، وقوة أساليبه، ومواعظه وأمثاله، وحقائق قصصه، وبلاغة بيانه، وإعجاز أساليبه، وإيضاحه وبيانه لحال السابقين بدقة وعناية، وكذلك إخباره بالحقائق، والمغيبات، والاستدلال بالأدلة القطعية التي لا ينفيها عاقل، بل إن إعجازه ظاهر في كل باب من أبواب ما صَرَّف اللهُ تعالى فيه من الآيات والذكر الحكيم. فليس هناك أعظم ظلماً للنفس وللحق ممن أعرض عن آيات الله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ وقد ورد

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٩٦)

البيان بصيغة الاستفهام الذي يفيد النفي والإنكار على أن يكون هناك أكثر ظلماً لنفسه ولغيره ممن أعرض عن آيات ربه عَزَّ وجل. فليس هناك أكثر وقوعاً في الظلم ممن ذُكِّر بآيات وحجج ربه فأعرض عنها. فهل هناك أظلم من هذه حاله؟ ليكون الجواب: لا. ليس هناك أظلم ممن تم تذكيره بآيات الله الواضحات فأعرض عنها. بل وردت لفظة ﴿أَظْلَمُ﴾ بصيغة المبالغة في الظلم، الذي يفيد علو وارتفاع ظلمه المتناهي، سواء من حيث صده ورده للآيات والحجج الواضحة، أو إعراضه ومعاندته لربه تبارك وتعالى.

ومن مزيد الفوائد الدلالية أن كلمة ﴿ذُكِّرَ﴾ تحمل الوعظ والإرشاد والبيان، وتعطي دلالة التنبيه للشيء المعروف لدى الْمُخَاطَب، فهو تذكير بما هو معروف لديه، في فطرته التي فُطِر عليها الإنسان، وبآيات القرآن وبالآيات والحجج الكونية التي يشاهدها ويعايشها، وبالآيات التي في النفس الإنسانية، التي هي في المخاطبين أنفسهم، لأن قوله تعالى ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ لم تقصرها على آيات محددة، بل وردت مطلقة، لتشمل جميع الآيات، وهذا من عمق دلالة النص الكريم، الذي يستوعب ويتناسب مع التذكير بجميع آيات الله تعالى المتنوعة، ومنها آيات القرآن التي تتعاضد مع الآيات الكونية، وآيات الأنفس، وآيات التدبير والتصريف للكون كله. فإنه تذكير بالحق والخير الذي تقبله النفوس وتميل إليه، وهو تذكير بالحق الذي يقبله العقل ويميل إليه، فليس ما يُذَكَّرُ به الْمُخَاطَبُ هو حادث جديد، بل تذكير بما غاب عنه نتيجة انغماسه في الباطل، وأنه تذكير بما يصدقه العقل، ولا يتنافى مع العقل السليم، وأنه تذكير بالحق الذي تقبله النفوس. لأن دلالة ﴿ذُكِّرَ﴾ هو تنبيه لِمَا غاب، وليس لحادث جديد.

ويفيد قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ الترتيب بحرف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيد تتابع الإعراض بعد التذكير مباشرة، فلم يتقبل ما تم تذكيره به مما يعرفه من الدلائل والحجج، وما هو مغروس في فطرته، استكباراً، وتطاولاً على الحق. ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ والإعراض يفيد إظهار وابداء التولي وعدم القبول، وبالتالي أصبحوا مجرمين بهذا الإعراض، فتوعدهم الله تعالى بالانتقام منهم، لقاء إعراضهم عن الحق ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فإننا سوف ننتقم من الذين أعرضوا عن ديننا وشرعنا. وفي هذا تفظيع وتعظيم لجرمهم العظيم باستكبارهم عن الحق، بل زاد تبارك من تعظيم جرمهم بتعظيم العقاب، بأن جعل عقابهم انتقاماً ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ وجعله مبهماً لم يبين ماهيته ونوعه، لزيادة تفظيع وتهويل ما كان منهم، وما سيجدونه من العذاب الشديد. كما ورد بضمير العظمة ﴿إِنَّا﴾ لزيادة التهويل الذي يستحقونه. مما يبين قوة منهج القرآن

في البيان، والوعظ والإرشاد، والتحذير والترهيب. وأن حجج الله تعالى أحاطت بهم من كل وجه ونوع. وهذا من رحمته تبارك وتعالى بعباده، إذ يحذرهم من الكفر والعصيان.

وبعد أن نبه وذَكَّر الله تبارك وتعالى عباده بآيات القرآن الكريم، يؤكد عَزَّ وجل أنه بمثل هذا الذي أنزلناه عليك أيها النبي من القرآن العظيم فقد أنزلنا من قبلك على موسى التوراة ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ لقد أعطينا موسى عليه الصلاة والسلام الكتاب الذي هو التوراة بمثل ما أعطيناك أيها الرسول القرآن العظيم. وفي ذلك تنبيه للناس بأن ما جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو شأن رسول الله موسى عليه السلام من قبل، فليس هو بدع من الأمر. وهو الكتاب المصدق للقرآن والمبشر به، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فثبت برهانهما، وتطابقا في الحق، بما يُثبت حقيقة القرآن الكريم، وينفي عنه الشك والريبة ممن ادَّعَى فيه غير الحق. وبالتالي نفى سبحانه وتعالى عن القرآن الريبة والشك، بتقرير المماثلة في الإيتاء للكتابين الكريمين.

ثم يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في شأن لقاء موسى عليه السلام ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ فلا تكن ﴿ فِى مِرْيَةٍ ﴾ في شك وريبة ﴿ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ قال أهل التفسير هو لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بموسى في السماء ليلة الإسراء. قال قتادة رحمه الله تعالى: يعنى ذلك: فلا تكن في شك من أنك لقيته، أو تلقاه ليلة أسري بك[١] وورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدَمَ طُوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة...)[٢] وفي هذه الآية الكريمة تصديق لما أخبر به صلى الله عليه وسلم من رؤيته لعيسى عليه وسلم، ونفي لمن شك في ذلك من الكفرة. ولكنه ورد في سياق مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام، رفعة لِشأنه، وتصديقاً له، وتكذيباً لمن شك في ذلك.

ثم يبين تبارك وتعالى مضمون كتاب التوراة ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فقد جعلنا كتابنا الذي أنزلناه على موسى هداية لبني إسرائيل، بما يفيد: وبالمقابل جعلنا القرآن هداية للعالمين. وبما يفيد أن عليكم أيها المشركون أن تفرحوا وتبتهجوا بما أنزلنا على رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، فأكرمناكم كما أكرمنا بني إسرائيل بالتوراة وبموسى رسولاً لهم عليه الصلاة والسلام، وإن من واجبكم التصديق والحفاوة بالقرآن العظيم، وبرسولكم محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٣٦/١٨)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤٣٠/٢) برقم (٣٢٣٩)

ثم يُخبر الله تبارك وتعالى بأنه جعل من بني إسرائيل دعاة خير للحق، بأمره وقضائه فيهم. فقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ وجعلنا من بني إسرائيل دعاة وهداة من العلماء إلى الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ يرشدون غيرهم بما أمرهم ربهم في التوراة، وليس باجتهاد منهم، بما يعني إرشادهم وفق ما جاءهم عن الله تعالى. وقد حصلوا على هذا بأمرين وقاعدتين وركيزتين عظيمتين: الأولى: ﴿لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ فبصبرهم على طلب علم الكتاب، والصبر على تعليمه، وما يواجهون في الدعوة، الأمر الذي تمكنوا به من إقامة الحق. مما يبين أهمية الصبر، وأهمية الصبر على أن تتعلموا دينكم، وتُعلِمُوه غيركم، وتصبروا على ذلك. والركيزة الثانية: ﴿ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ فقد حققوا في أنفسهم درجة اليقين من التصديق بآيات الله تعالى، فحصل لهم من الإيمان والعمل بما عملوا إلى درجة اليقين المضاد للشك، والمتنزه من الريبة. فاندفعوا للإرشاد والتعليم والنصح. بما يفيد أن هذا منهج الصادقين لتكونوا مثلهم في الصبر واليقين بآياتنا.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه هو الذي يتولى الفصل يوم القيامة فيما يكون من الاختلاف في الدين بين العباد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إن ربك أيها النبي يقضي بينهم في شأن ما اختلفوا فيه. فيخاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمته تبعاً له ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ هو وحده الذي يقضي بينهم فيما يختلفون فيه. فينفي سبحانه وتعالى أن يكون غيره الذي يفصل، حيث حصر الفصل عليه عَزَّ وجل. هو وحده الذي له الشأن في الفصل بالقضاء والحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فيما كانوا يختلفون فيه الدنيا من أمور الدين، وأمور البعث والثواب والجزاء. بما يفيد تقرير القضاء، وتقرير الجزاء العادل، فثواب المؤمنين الجنة، والكافرين النار.

وفي الآية شمولية واتساع لدلالتها، بأن الله تعالى هو يفصل بين المختلفين، بين الأنبياء وأممهم، وكذلك هو وحده الذي له الشأن في الفصل بالقضاء والحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمور الدين، وأمور البعث والثواب والجزاء. وبما يفيد تقرير القضاء، وتقرير الجزاء العادل، فثواب المؤمنين الجنة، والكافرين النار. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم الأنبياء وأممهم. والثاني: المؤمنون والمشركون[1] وقال السعدي

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١٧٧-١٧٨)

رحمه الله تعالى: وثم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأ، أو عمداً. والله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة ﴿هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه. فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه فهو باطل[1] فهو الذي يحكم بين بني إسرائيل في الأمور التي كانوا يختلفون في شأنها، فيما بينهم. مما يثبت أنهم قد اختلفوا فيما بينهم. ودلالة الآية الكريمة شاملة في قضاء الله تعالى بين عباده أجمعين. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: إن ربك يا محمد هو يفصل بين خلقه يوم القيامة فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون، من أمور الدين والبعث، والثواب والعقاب، وغير ذلك من أسباب دينهم[2] فبذلك تكون دلالة الآية الكريمة عامة في القضاء فيما يختلفون فيه من أمر الدين.

ولما أن أصل الدين واحد، وهو ما جاء من الله تعالى، وأنه ثابت، فيدل ذلك على أن الاختلاف نابع من الخطأ في الاجتهاد، ومن الأهواء، والتأويل جهلاً، وربما تحزباً. مما يفيد التحذير من الخروج عن أصل الدين الذي يجمع العباد ولا يفرقهم، وأن من خرج عن الأصل افترق عن أصل الحق. ففي ذلك تحذير وتنويه عن الاختلاف وخطره. فاستوعبت الآية الكريمة جميع دلالات الاختلاف وأنوعه. وهذا من بلاغة البيان ورحابته في استيعاب المقاصد بسياق واحد من غير تكرار وتفنيد.

وقد أسند سبحانه وتعالى الفصل إليه، بل وقصره على ذاته تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ فاسم الإشارة ﴿هُوَ﴾ أفاد القصر بالتعيين والتحديد له وحده لا شريك له في الفصل بينهم ﴿هُوَ يَفْصِلُ﴾ وكذلك أكده عَزَّ وجل بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من البيان. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ فإن ربك يا أيها النبي ﴿هُوَ﴾ وحده لا شريك له ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ ثم حدد الموعد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ فالموعد هو يوم القيامة الذي يكون فيه الفصل والقضاء. ثم حدد السياق موضوع الفصل وهو: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ في الشأن الذي كانوا فيه يختلفون. فورد السياق بدقة في البيان، وترتيب بليغ، وإيجاز في التحرير. فإن يوم القيامة يوم مشهود.

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/١٣٠)

(2)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٦٣٩)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ
أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ
أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ
يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم
مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

ثم يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن قومه، بالأمر الذي يرشدهم إلى الحق، من خلال لفت انتباههم إلى من أهلكهم ممن سبق من الأمم التي كفرت بالمرسلين. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ألم يتبين لهؤلاء الكافرين الجاحدين للحق الذي جاءهم به رسولهم صلى الله عليه وسلم، ما أصاب الأمم السابقة التي كفرت بالمرسلين، فحق عليها الهلاك، فدمرهم الله تعالى بما كان منهم من التكذيب والاستعلاء. فإنكم تمشون اليوم وتسيرون، مارين بمساكنهم، وديارهم التي يظهر لكم منها الهلاك لتلك الأقوام. فهو سؤال استنكار لتلك العقول التي غفلت عن الآيات والحجج والبراهين، ومن الأقوام التي أهلكها الله تعالى، كعاد وثمود، وقوم لوط، وفرعون وقومه.

وقد ورد البيان الكريم بصيغة السؤال، والاستفهام، الذي يفيد الاستنكار عن عدم تعقلهم مما مر بمن سبق ممن كفر بالمرسلين. وابتدأ البيان بقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ ﴾ وفي هذا شد الانتباه عند الْمُخَاطَب بالاستفهام ﴿ أَوَلَمْ ﴾ فيخاطب الله تعالى عباده في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، رفعة لمقامه عليه الصلاة والسلام، بأنه هو الْمُخَاطَب الذي يُخاطبكم بما أنزله عليه ربكم من الوحي. ألم يشاهد هؤلاء الكفرة ما حل بمن سبق من الكفرة. وهو استفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومشاهد ومتقرر عند هؤلاء الناس، فَيُلْجِئُهُم بذلك إلى الحقيقة والبرهان والدليل المنظور، الذي يمرون به في أسفارهم، ويشاهدونه بأعينهم وبصائرهم. بما يدل على عظيم الموعظة بالمحسوس من المشاهدة والمعاينة لآثار تلك الأمم.

وجملة ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ تفيد قوة الأثر والدلائل التي يهتدي بها الإنسان إلى الحق، فكونهم لم يهتدوا بها، فإن في ذلك دلالة على استكبارهم وعنادهم، فَغَلَّبوا هوى النفس على الحق. وقد أثبت الله تبارك وتعالى لهم كثرة الهالكين من الأمم السابقة، بقوله عَزَّ وجل ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾

لحرف ﴿كَمْ﴾ يفيد الكثرة المتواترة التي يمتنع بها الشك والريبة، وجملة ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ تفيد تعدد الأمم واختلافها حتى من حيث الزمن، بما يفيد كثرة تلك الأمم الهالكة، كقوم عاد، وثمود، ومدين. ثم يُثبت سبحانه وتعالى مسير ومرور هؤلاء المشركين بديار الهالكين في أسفارهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يمرون في أسفارهم بديار الهالكين التي فيها بقايا مساكنهم، فيمشون نحوها، فلا يرون أحداً من أهلها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ إن في تلك الديار، والهلاك الواقع بهم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ لعبر ومواعظ وحجج واضحة لهم، بأن مَن كذب الرسول فعاقبته الهلاك والدمار. ثم يعقب ذلك البيان باستفهام إنكار وتعجب من حالهم ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ فإن حالهم حال من لم يسمع شيئاً، ولم ير شيئاً من الآيات. فإنهم استوجبوا العذاب إذا لم يُسلموا ويؤمنوا بما جاءهم من الحق.

إنه استفهام يقرر تلك الأحداث، ويقرر بها وجوب الاتعاظ، واستنكار لمن كان شأنه التكذيب، وعدم الاتعاظ من المشاهد والحقائق. فهو استنكار من شأنهم، إذ يمرون بها؛ ولا يتعظون منها. وهو كذلك توبيخ لهم، بأنهم يسمعون أخبار أولئك، مع مشاهدتهم لها، وتناقل أخبار تلك الأمم الهالكة فيما بينهم، ويسمعون آيات الله تعالى يتلوها عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم، وحالهم حال من لم يسمع شيئاً، ولم ير شيئاً من الآيات ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ بما يفيد أنهم استوجبوا العذاب إذا لم يُسلموا ويؤمنوا بما جاءهم من الحق.

وهذا يستوجب من الإنسان أن يعتبر بالآيات، والأحداث، وتصريف الله تعالى للخلق، وآياته المبثوثة في هذا الكون العظيم، وما يُتلى من القرآن العظيم، فجميعها تغذية للعقول، وإيقاظ للأفئدة، بالانتباه للحق، ولزومه، وعدم المكابرة، فإن المكابرة والاستخفاف بالحق هلاك للفرد والأمم.

ثم يزداد البيان في إقامة الحجة، من خلال بيان عدم استفادتهم مما يرونه ويعيشونه من آيات الله تعالى الكونية، من سوق الرياح للسحب، وإنزال المطر، وإنبات الأرض الجافة، فَيُخْرِجُ اللهُ تعالى بذلك الماء ما يتنعمون به من النعم، أفلا يبصرون هذه الآيات من سوق النعم إليهم بالماء من الأمطار التي تسوقها الرياح ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ألم يشاهد أولئك المكذبون بأعينهم وبصائرهم كيف نسوق الماء من خلال ما تقوم به الرياح من نقل السحاب من مكان لآخر بأمره عَزَّ وجل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ ﴾ وقد أسند تبارك وتعالى سوق الماء له عَزَّ وجل مباشرة ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ لإظهار عظمته في إرادته، وفي الخلق والتدبير والإنعام،

وقد أسنده بنون التعظيم المتصدرة كلمة ﴿ نَسُوقُ ﴾ وكذلك سبقها ضمير التفخيم والتبجيل والعظمة ﴿ أَنَّا ﴾ لتعظيم المتكلم سبحانه وتعالى، وتعظيم الإنعام على العباد، وتعظيم التدبير، وكيفيته، الذي يثير الذهن نحو عظمة المدبر الخالق سبحانه وتعالى، والذي يستوجب الطاعة والامتثال له عَزَّ وجل. فهو الذي يتولى شأنكم.

ويفيد تحديد وتعيين الأرض الجرز من سوق الماء إليها ﴿ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ التخصيص والتعيين من بين مساحة وأنواع الأرض. بأنها الأرض الجرز التي لا حياة فيها. فإن من دقائق التدبير تخصيص وتعيين الأرض وصفتها التي يُنَزِّلُ اللهُ تعالى عليها الماء. للفت الانتباه لحالها قبل وبعد الماء من الغيث الذي ينزل عليها بتدبيره سبحانه وتعالى. فإن الإنزال للماء لم يكن عاماً من غير قصد وتحديد، بل لتلك الأرض الْجُرُز التي قصدناه بإنزال الماء عليها، لإفادة تحديد وتعيين المكان بعينه، من بين أماكن أخرى، فهو مبني على اختيار محدد، وإرادة معينة ومحددة بأن تكون في جهة بحسب إرادته سبحانه وتعالى.

وبالرغم من أن الله تعالى ينزل المطر على الأرض الحية والميته إلا أنه هنا خصص الأرض الميتة ﴿ ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ بما يفيد إثبات البعث، بإحياء هذه الأرض بعد موتها، وبمثله يُحي الإنسان بعد موته ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ والجرز هي: التي لا نبت فيها، وهي اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، ثم تتحول هذه الأرض الجرز التي لا نبات فيها إلى أرض خضراء، تنتعش بالحياة الخصبة ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا ﴾ فنخرج بهذا الماء الزرع، الذي هو حياة الأرض. وقد أسند سبحانه وتعالى إخراج الزرع له عَزَّ وجل، لإفادة الإنعام، ولإفادة أن بعث الأموات كذلك من قبورهم، فبمثل قدرتنا على إخراج الزرع من الأرض الميتة، فكذلك نخرج الأموات من قبورهم أحياء. فأين وجه التعذر من ذلك؟ فإنه لا حقيقة للتعذر والامتناع. مما يبين لطف الله تعالى في تعليم العباد، وإقناعهم وإرشادهم للحق، وكيف يتبينون حقيقة البعث من الدلائل التي يشاهدونها من تدبيره عَزَّ وجل. فالحمد لله تعالى على لطفه. كما يبين هذا أهمية المواعظ والإرشاد والتعليم من خلال الآيات الكونية، فإن فيها علم عظيم، ودلالات إرشاد ومواعظ.

ثم يبين تبارك وتعالى وجه الإنعام عليهم بهذا التدبير العظيم ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ فبعد أن كانت أرضاً جرزاً لا نبت ولا حياة فيها، ثم أنزلنا الماء سوقاً إليها، هو من أجل أن تأكل منه أنعامكم، وأنتم كذلك. وقدم الأنعام على أنفسهم، لأنهم من الأنعام يأكلون، ومن لبنها يشربون، ومن أجبانها يتغذون. فالزرع مصدر لمصدر غذائهم.

ثم يختم تبارك وتعالى الآية الكريمة باستفهام عظيم ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ فحالهم حال من لم يبصر شيئاً، ولم ير شيئاً من الآيات الكونية. فهم يرون تدبير الله تعالى لآياته، وملكوته، ولا يتعظون، وكأنهم لا يبصرون

شيئاً من عظمة الله تعالى. وكذلك هو استفهام يقرر به ذلك الحدث الكوني، والإنعام العظيم، الدال على كمال قدرته سبحانه وتعالى، وعلى تفضله وإنعامه، وأنه يحي الموتى كما يحي الأرض الجرز، ويقرر بها وجوب الاتعاظ والفهم، وأهمية القياس. كما فيه استنكار من شأنهم، إذ يرون الآيات الكونية، ويتعايشون معها ولا يتعظون بها. وفيه كذلك توبيخ لهم، بأنهم يرون تدبير الله تعالى لآياته، وملكوته، ولا يتعظون، وكأنهم لا يبصرون شيئاً من عظمة الله تعالى وكمال قدرته. فحالهم حال من لم يبصر شيئاً، ولم ير شيئاً من الآيات الكونية، بما يفيد أن الحجة قائمة عليهم، وأنهم استوجبوا العذاب إذا لم يسلموا ويؤمنوا بما جاءهم من الحق.

وهذا يستوجب من الإنسان أن يعتبر بالآيات، والأحداث، وتصريف المخلوقات، وتعدد آيات الله تعالى المبثوثة في هذا الكون العظيم، وكذلك التي تُتلى من القرآن العظيم، فجميعها تغذية للعقول، وإيقاظ للأفئدة، بالانتباه للحق، ولزومه، وعدم المكابرة، فإن الكبر، والانشغال بالملذات، وتقديمها على الحق هلاك الفرد والأمم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن استعجال المكذبين بالعذاب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فيقول المكذبون بالعذاب: متى يكون هذا الفتح الذي هو القضاء والحكم والفصل، وهو يوم البعث الذي يقضي الله تعالى فيه بين العباد؟ سؤال استنكار واستبعاد منهم. أين هذا الذي تَدَّعُونَه وتقولون به؟ وما يتبع ذلك من العذاب الذي يكون تبعاً للحكم. وهو سؤال على سبيل الاستهزاء والتندر، والاستخفاف بالوعيد ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإن كنتم صادقين فيما تقولون فحددوا لنا هذا الموعد. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فالسؤال هو عن وقته متى يكون. على سبيل الاستبعاد والاستنكار. وهذا من شدة فرطهم في الكفر والضلال.

ومن رحابة دلالة الآية الكريمة أنها استوفت دلالات متعددة ومتوافقة وغير متعارضة. وقد جمع ابن الجوزي رحمه الله تعالى تلك الأقوال: ﴿وَيَقُولُونَ ﴾ يعني كفار مكة ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه يوم بدر. فُتح للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت. والثاني: أنه يوم القيامة. وهو يوم الحكم بالثواب والعقاب. والثالث: أنه اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب في الدنيا. والرابع: فتح مكة. فلا ينفع من قُتل من الكفار يومئذ إيمانهم بعد الموت[1] فاستوفت دلالة الآية جميع تلك الأحوال بنص كريم واحد، بما يفيد الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فجميع تلك المعاني حقائق.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٨/٦)

ثم يخبر الله تعالى بموعده على أسلوب التحذير والتخويف والوعظ ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ قل لهم يا أيها الرسول: إن حالكم يوم الفتح الذي يكون فيه القضاء والفصل، لا ينفع فيه الايمان حال مشاهدتكم العذاب ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ فهو يوم لا ينفع إيمان الذين كفروا عند مشاهدة العذاب، فيريدون أن يؤمنوا عند مشاهدته، فراراً من العذاب، فلا نفع للإيمان هناك، لأنه يوم جزاء. وكذلك ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ لا يُؤَخَّرُون للتوبة والمراجعة، فلا يُمهَلُون بتأخير العذاب، بل حينها يكون العذاب واقع بهم، ولا مفر منه. بما يفيد: عليكم أن تستدركوا فسحة الحياة الدنيا بالتوبة والإيمان، قبل مجيء ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه الإيمان عند مشاهدة ومعاينة العذاب.

ثم يختم الله تعالى سورة السجدة بتوجيه رسوله صلى الله عليه وسلم إلى منهجية التعامل مع الذين كذبوا به صلى الله عليه وسلم، حتى وصل بهم العناد إلى الاستكبار عن مواعظ آيات الله تبارك وتعالى التي أرشدهم ووجههم لها صلى الله عليه وسلم، كإنزال الماء من السماء، وسوق السحاب إلى الأرض الجرز، وإنباتها بعد موتها، وإلى أماكن ومساكن الأمم التي أهلكها الله تعالى، بعد أن كفروا بما جاءهم من الحق على أيدي المرسلين لهم، وما في كتابه القرآن العظيم من الحجج والبراهين والمواعظ. فقال تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ فاتركهم، ولا تلتفت إلى ما يكون منهم من التكذيب، والسخرية، والعناد، والمعارضة ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فاتركهم وتكذيبهم، ولا تنشغل بهم عن غيرهم. مما يعطي الداعية والناصح بالخير، أن مهمته هي في أداء ما عليه من البيان، والنصح، والإرشاد، والصبر على ذلك، حتى إذا وصل عدم القبول منهم كل مبلغ، فعاملهم بالإعراض عنهم، حتى لا تنشغل عن غيرهم بهم، فلا يكن هؤلاء حجر عثرة، وتعطيل لمسيرة الدعوة، فإن لم يقبلوا فإن هناك من يقبل، فاشتغل بغيرهم، واترك المصرين على الاستكبار والعناد.

ثم يوجه اللهُ تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى التريث والترقب لما سيحل بهم من النكاية ﴿ وَٱنتَظِرْ ﴾ فانتظر أيها الرسول، انتظار المترقب لما يحل بهم، ولما ستحصل عليه من النصر والتمكين. وفيه تهويل لما سيكون من أمرهم، وبشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بما سيكون عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من الظفر والنصر. ثم يُورد الله تبارك وتعالى سبب وعلة هذا الانتظار ﴿ إِنَّهُم

مُّنتَظِرُونَ ﴾ فإنهم مُنتَظِرُون، ولم يذكر سبحانه وتعالى ما سينتظرونه، ففي إضمار ما سيكون لهم إفادة التهويل والشدة، والتخويف والإرعاب لهم، والمباغتة بما سيكون لهم من العذاب.

ومن سعة البيان لدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أنها تعني: أنهم منتظرون ما يحل بك من الهزيمة. وتأتي بمعنى: الانتظار لعذاب الله تعالى الذي سيحل بهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ينتظرون بكم حوادث الزمان... وتكون بفتح حرف الظاء: وانتظر هلاكهم، فإنهم أحقاء بأن يُنتظر هلاكهم، يعني أنهم هالكون لا محالة[١] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى في المعنى: ﴿وَٱنتَظِرْ ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم[٢] فأفادت انتظارهم حوادث الانهزام للمؤمنين، وكذلك دلالة انتظار المؤمنين هلاك الكافرين. وقد نصر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، وهزم أعداءه. وفي انهزامهم آية إعجاز، بأن تحقق ما وعد الله تعالى به، وِفْقَ ما وعد به عَزَّ وجل، ليزداد المؤمن إيماناً، وليكون لغير المؤمنين عظة وآية عظيمة بأن هذا الدين حق، وأنه من الله تعالى. فمن اهتدى فلنفسه، ومن كفر فعلى نفسه يجني ويكتسب ما يحل به من العذاب المهين.

تم بحمد الله إتمام سورة السجدة، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/٧٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣/٥١٤)